الباب الأول

مفهوم الاتصال ووسائله وأساليبه

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: الاتصال ضرورة ومفهوم.
- الفصل الثاني: وسائل الاتصال.
- الفصل الثالث: أساليب الاتصال.

الفصل الأول

الاتصال ضرورة ومفهوم

وفيه:

- تعريف الاتصال.
- مستويات الاتصال.
- تعريف الأدب.
- علاقة الأدب بالاتصال.
- أدوات الاتصال.
- وظائف الاتصال.
- أنماط الاتصال.

الفصل الأول: الاتصال ضرورة ومفهوم:

منـذ أن خُلـق الإنسان بـدأ الاتصال، والاتصال ضـروري للإنسان في حياته ومعاشه، ولذلك خُلقت معه الوسيلة التي يتمّ عبرها الاتصال، فكان تعليم الله ﷻ لآدم الأسماء كلها، ومن ثمَّ كانت اللغة هي وسيلة التفاهم والاتصال والتعبير.

تعريف الاتصال:

أداء يقـوم به فرد أو أكـثر، أو جهة، ويُسمّى المرسـل؛ لنقل رسالة محمّلة بموضـوع، إلى شخصـ أو جهـة أُخرى، ويُسمّـى المستقبل، ويهـدف إلى غرض مقصـود. فهو عمـل من طرفين: طرف يحمـل رسالة تحمـل مضمونًا ما، مثل: معلومـات، أو أخبـار، أو آراء، أو اتجاهات، أو مشاعـر، أو مضمونًا اجتماعيًّا أو ثقافيًّـا، أو إمتاعيًّا أدبيًّـا إلى آخر ما في جعبة الرسائل من أغراض وأفكار، يتم نقلهـا إلى طـرف آخر هو المستقبـل أو المتلقي الذي يكون معنيًّـا بهذه الرسالة، فالأستـاذ والطالب، والعـالم والمتعلم، والطبيـب والمريض، والبائـع والمشتري، والرئيس والمرؤوس، والرجـل والمرأة، والكاتب والقراء، والشاعر والجمهور، كل هؤلاء يقومون بدور المرسل والمستقبل.

ونجـد له تعريفًـا عند علماء النفس مبنيًّـا على أنّ (**الاتصـال عملية من أهدافها تغيير سلوك الناس واتجاهاتهم، بما يحدثه في بناء النفس للمتلقي، بحيث يرى الإنسـان الأشـياء، ويفسـرها، ويقيمها بطريقة تختلف عمّا قبل، ومـن ثـمّ فإنّه يعيـد ترتيب نظـام القيم والاتجاهـات في نفسـه**[1]) فالاتصال عملية مركبة، يُقصدُ بها إحراز هدف يقصد إليه المرسل، أو المتصل، وإذا كانت

(١) سيكولوجية الاتصال: ص٢.

اللغة كما عرَّفها ابن جنّي: (أصوات يُعبِّر بها كلُّ قومٍ عنْ أغراضِهم[1]) فإنَّ الغرضَ الذي يقصدُهُ المتَّصلُ هو الأساسُ الذي تقوم عليه عمليةُ الاتصال.

ومن هذا التعريف يبدو الاتصال عملية مشتركة، تشترك فيها أطراف متعددة، هي:

- **الأداء أو الرسالة**، وهو ما يقوم به المرسل من عمل توصيلي من خلال الكلام المنطوق أو المكتوب، أو بأي وسيلة أخرى: كالترميز، والإشارات، والتصوير، وغير ذلك، فقد تكون الرسالة صوتية مثل الكلام، أو صورية مثل الكتابة، أو حركية، مثل الإشارات، أو خليطًا من كل هذه الأشكال.
- **المرسل**: قد يكون شخصًا، وقد يكون جهةً أو مجموعةً، مثل: الوزارات والمؤسسات والشركات، أو الصحافة والإذاعة والتلفاز، والمرسل هو المعني بتوجيه الرسالة.
- **الموضوع**: أي موضوع الرسالة، وهو يشمل كل أمر من أمور حياتنا، وكلّ شأن من شؤونها: الحضارية، والثقافية، والفكرية، والتعليمية، وما يرتبط بحاجاتنا ودوافعنا، ومشاعرنا، واتجاهاتنا.
- **المستقبل**: هو الذي يتلقى الرسالة، أيًّا كان فردًا أو جمهورًا، وهو المعني باستقبالها، والتفاعل معها.
- **الهدف**: قد يسمو هدف الرسالة، فيعلو حتى يصل إلى أن يكون رسالة إنقاذ للبشرية، كالرسالات السماوية، أو رسالة ذات أهمية قصوى للمجتمع، كرسائل: الإصلاح، والتعليم، والتوجيه، والتخطيط، وقد تكون ذات مغزى بسيط، كإلقاء تحية، أو السؤال عن شخص أو مكان، أو الإخبار بخبر... إلخ.

---

(١) الخصائص لابن حني ١/٣٣.

ومستويات الاتصال تتدرج من الذات، إلى الآخر، إلى الجمهور، وتفصيلها:

- **الاتصال الذاتي:** هو ما يُعرف بحديث الذات، أو الحوار الداخلي، أو المناجاة.
- **الاتصال مع الآخر:** كالحوار، والجدل، والنقاش، ويتم بين شخصين أو أكثر.
- **الاتصال الجماهيري:** هو الخطاب العام، ويتضمن مستويات عدة: كخطاب جهة، أو جماعة، أو جمهور عريض.

الأدب والاتصال:

تعريف الأدب: الأدب في كل أمة عنوان حضارتها، وحلية ثقافتها، ومخزون حكمتها، وزبدة تجربتها، وجمال صورتها، وتاريخ أمجادها، وهو الباقي على الزمان، الحافظ لشخصيتها من الاندثار والزوال.

ولأهمية الأدب في تخليد أهله، وقوة آثاره، ويُسْرِ توصيله لأغراضه، كان الاهتمام به لا ينضب، والرغبة فيه تقوى وتشتد، والطموح للوصول إليه لا يتوقف أو ينضب، ولعل في تقديم تعريف سريع وميسر للأدب كونه الوسيلة المثلى للاتصال، يضع أيدينا على هذه الشبكة العجيبة التي تمثل قدرة فائقة على التواصل والاتصال، تمامًا كما قال الشاعر يصف قصيدته:

تردُ المياهَ فماتزالُ غريبةً ... في القومِ بين تمثُّلٍ وسماعِ[1]

إننا مع الرأي القائل بصعوبة تعريف الأدب؛ لأنَّ (**الأدب لا يُتعرَّف من جانب واحد، ولا من وجهة نظر واحدة، فهناك: الشأن الاجتماعي،**

(١) نضرة الإغريض ٢/١.

والتاريخي، والعملي، والفني، الأدب هو في وقت واحد: نظام خاص للتعبير عن: الشأن الاجتماعي، وتاريخ المفاهيم المتغيرة، إلى الكتابة الفنية، ونتاج فني تنعكس فيه أصداء الصراع بين النظريات، صراع مستمر بين الولادة والموت، بين التجديد والتقليد... ولكنَّ صعوبة الإمساك بمفهوم الأدب لا تعني غياب الثوابت[1]).

وإذا كان مفهوم الأدب عند القدماء قد مرّ بمراحل، كما أورد الرافعي في تاريخ آداب العرب[2] حيث اقتصر في المرحلة الأولى على الجانب التهذيبي الخلقي، كقوله ﷺ «**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**[3]».

وإن كان ذلك راجعًا إلى المعنى الحسي المتصل بالدعوة إلى الطعام، وكون الدعوة إلى الطعام من الأدب، والكرم عنوان العربي، وأصل مفاخره، فأَدِب يأدِبُ مأدبة، وهو آدب: أي داعي إلى الطعام، كما ورد في قول طرفة بن العبد البكري:

نحنُ في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر[4]

ثم صار إلى المرحلة الثانية، حيث اتسع مدلولها، لتدل على كل العلوم عدا العلوم الشرعية، وبذلك عُرفت طبقة المؤدبين في العصرين: الأموي، والعباسي.

وجاء في كتاب التعريفات أيضًا [5](**الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ**).

---

(١) قضايا أدبية عامة مقدمة المترجم: ص ١٤.

(٢) ١/ ٣١-٣٧.

(٣) أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٠١/١ قال ابن تيمية: معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت.

(٤) ديوان طرفة بن العبد: ص ٢٠.

(٥) كتاب التعريفات باب الهمزة.

ولما كـثرت العلوم وتعدّدت صار يـدل على الكلام الجيـد البليغ، فانضوى تحت لوائه الشعراء والكتاب والأدباء.

وقد عرفه ابن خلدون، فقال: (**المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجـادة في فنـي المنظـوم والمنثـور على أسـاليب العرب ومناحيهـم، فيجمعون لذلـك مـن كلام العـرب ما عسـاه تحصـل به الملكـة... ثـمّ إنّهـم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشـعار العرب وأخبار ها والأخذ من كل علم بطرف**[1]).

وقد عرفه المحدثون، بأنه: (**الكلام البليغ الذي ينبثق عن اللغة في شعرها ونثرها وما يدور حولهما من دراسات، ومنهم من عرفه بالدافع إليه والحافز عليه، وناقشوا قضية التجربة الشعورية التي هي الدافع للأدب**).

فهل الأدب تعبير عن تجربة؟ وأيُّ تجربة هي؟ هل هي تجربة الأديب وحده؟ أم تجـارب الآخرين التي يحسُّ بهـا وينقلها إلينا؟ أم هي تلك التجارب السابقة التـي اطَّلع عليها، وأثَّرت في نفسه، ومجرى حياته الأدبي؟ فهل الأدب كلّ واحدة من هذه التجارب على حدة؟ أم هو مجموع هذه التجارب؟

حقيقـة الفهم والوعي بالأدب تقـول: إنَّ الاقتصار على التجربة الذاتية في الأدب قصـور، إذ لا بـدَّ للأديب من أجل إثراء أدبـه أن يتزوّد بكلِّ ما يفيده، ثمَّ يصوغـه بعد ذلـك أثرًا جديدًا لا تـكاد تلمح فيه ما سبـق إلّا كخلفية أو ظلال، فالنَّحـل يأخـذ الرّحيق، لكنـه يُخرج لنا شرابًـا مختلفًا ألوانـه، لا يمكن لنا أن ندّعي أنّه الرحيق، بل هو العسل.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٥٣.

ولعلَّ الفرزدق من أوائل من أثبت لنا هذه القضية، وأنّ تجارب الآخرين وإبداعاتهم هي التي منحته إبداعه، فالإبداع الخاص جزءٌ من الإبداع العام، وهذا لا يلغي الذاتية، بل يعززها ويضيف إليها، ينمّيها ويصقلها، ويجعلها قابلة للنمو والحياة، وفي ذلك يقول[1]:

وهبَ القصائدَ لي النَّوابغُ[2] إذْ مَضَوا
وأبو يزيدَ وذو القروحِ[3] وجرولُ[4]
والفحلُ علقمةُ[5] الذي كانت له
حُلَلُ الملوكِ كلامهُ لا يُنْحَلُ
وأخو بني قيسٍ[6] وهنَّ قتلنهُ
ومهلهلُ[7] الشعراءِ ذاكَ الأولُ
والأعشيانِ[8] كلاهما ومرقشٌ
وأخو قضاعةَ قولهُ يتمثلُ

(١) ديوان الفرزدق ص ١٧٠.

(٢) النوابغ، وهم: النابغة الذبياني زياد بن معاوية شاعر من الطبقة الأولى، ومن شعراء المعلقات، مدح ملوك المناذرة والغساسنة، وتوفي نحو ١٦ قبل الهجرة. والنابغة الجعدي وهو قيس بن عبدالله الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مخضرم صحابي، توفي نحو ٥٠ للهجرة. والنابغة الشيباني عبدالله بن مخارق، شاعر بدوي من شعراء العصر الأموي. توفي نحو ١٢٥ للهجرة.

(٣) ذو القروح: امرؤ القيس بن حجر الكندي شاعر جاهلي عُدّ سابق الشعراء، ومن أصحاب المعلقات، توفي نحو ٦٠ قبل الهجرة.

(٤) جرول: الحطيئة العبسي، شاعر مخضرم هجاء، توفي نحو ٤٥ للهجرة.

(٥) الفحل: علقمة بن عبدة التميمي من الشعراء الفحول، من معاصري امرئ القيس والنابغة الذبياني توفي نحو ٣ للهجرة.

(٦) أخو بني قيس: طرفة بن العبد البكري، قتل شاباً، قتله عمرو بن هند ملك الحيرة، من شعراء المعلقات.

(٧) مهلهل: عدي بن ربيعة، سمي بالمهلهل؛ لأنه أول من هلهل الشعر أي أطاله، وهو المشهور بالزير سالم صاحب معركة البسوس.

(٨) الأعشيان: الأعشى الكبير ميمون بن قيس من أصحاب المعلقات، توفي سنة ٧ للهجرة. والأعشى الهمداني.

وأخو بني أسدٍ عبيدٌ[١] إذ مضى
وأبو دؤادٍ[٢] إنهُ يتنحلُ
وابنا أبي سلمى زهيرٌ وابنهُ[٣]
وابنُ الفريعةِ[٤] حينَ جدَّ المِقْولُ
والجعفريُّ[٥] وكانَ بشرٌ[٦] قبلهُ
لي منْ قصائدهِ الكتابُ المجملُ
ولقدْ ورثتُ لآلِ أوسٍ[٧] منطقًا
كالسُّمِّ خالطَ جانبيهِ الحنظلُ
والحارثيُّ أخو الحماسِ ورثتهُ
صدعًا كما صدعَ الصفاةَ المعولُ
يصدعنَ ضاحيةَ الصَّفا عنْ متنهِ
ولهنَّ منْ جبلي عمايةَ أثقلُ
دفعوا إليَّ كتابهنَّ وصيةً
فورثتهنَّ كأنهنَّ الجندلُ

---

(١) أخو بني أسد: عبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات.

(٢) أبو دؤاد: جارية بن الحجاج الإيادي، شاعر جاهلي، اشتهر بوصف الخيل.

(٣) ابنا أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى المزني، حكيم شعراء الجاهلية، من أصحاب المعلقات، توفي سنة ٣ قبل الهجرة، وابنه كعب بن زهير صاحب البردة في مدح الرسول ﷺ، توفي سنة ٢٦ للهجرة.

(٤) ابن الفريعة: حسان بن ثابت رضي الله عنه، شاعر الرسول ﷺ وهو شاعر مخضرم توفي سنة ٥٤ للهجرة.

(٥) الجعفري: لبيد بن ربيعة العامري، شاعر مخضرم من أصحاب المعلقات، ويعد من الصحابة، عُمِّر طويلاً، وتوفي سنة ١٤ للهجرة.

(٦) بشر: هو بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، شاعر جاهلي فحل، توفي نحو ٢٢ قبل الهجرة.

(٧) آل أوس: أوس بن حجر التميمي، شاعر جاهلي، عُمِّر طويلاً، وتوفي في السنة الثانية قبل الهجرة.

علاقة الأدب بالاتصال:

يقـول الدكتور علي جـواد الطاهر: (**إنّك لا تجـد أدبًا، كمـا لا تجد فنًّا لا يكـون مـن غايتـه التوصـيل، والطـرف الأول في التوصـيل هـو الأديـب الذي يصوغ التجربة، والطرف الثاني الذي يتلقى التجربة هو السامع، أو القارئ، أو المشـاهد، والسـلك الموصـل بين الطرفين هو اللغة التي تحمل التجربة**[1])

وأقـول: إذا كان مـا عبَّر عنه الدكتـور الطاهر أطراف التوصيـل، من: مُرسل، ومُرسَل إليـه، ورسالة، فإنَّ نجاح مثل هذا التوصيل يؤدي إلى نجاح العمل كلّه، ويكـون ذلك بأن تتمثَّل في الطـرف الأول وهو المُرسِـل أو المُوَصِّل القدرة الفنية، والجـودة الإبداعية التـي تتلمّس الجوانـب الجمالية والإنسانيـة من خلال لغة مؤثرة، وإحساس فعّال، وذوق منتخب.

وأن تكـون الرسالة: فيها من التأثير والجمـال والإبداع ما يجعلها صالحة لأن تُقبل، وهذا القبول الذي يبعث الرّضا والسعادة في نفس المتلقي هو الإدراك بقوّة التوصيل وفاعليته.

وأمّـا الطرف الثالث: وهو المرسَل إليـه أو المُتلقّي فيجب أن يكون هو الآخر قادرًا على استيعاب وفهم ما أُرسل إليه، فإذا قصّر فهمه، أو عجز عن الوصول كضعـف قدراته، أو عدم معرفته للغة النص،أو نتيجة لتشويش، فسيحدث عطل يؤدي إلى عدم وصول الرسالة على الوجه المقبول.

قيل لأبي تمام: لَم تقول مالا يُفهَم؟ فأجاب: ولَم لا تفهم ما يُقال؟

أدوات الاتصال:

أدوات الاتصال عديدة، فهناك:

---

(١) مقدمة في النقد الأدبي: ص ٢٩ – ٣٠ وانظر فيها عملية الإبداع.

١- **أدوات لغوية، وهي إمّا شفهية، أو كتابية:**

- **شفهية**، مثل: القراءة، والإلقاء، والمحاضرة، والخطبة، والاقتراح، والشكوى، والمداخلات، والأسئلة، والمقابلة الشخصية، والاتصال بالهاتف.
- **كتابية**، مثل: الرسائل، والمقالات، والكتب، والصحف، والمجلات

٢- **أدوات غير لغوية**، مثل: التعبير بالحركات والعيون.

٣- **أدوات الاتصال التصويرية**، مثل: المصورة، والتلفاز، والسينما، والصور، والنحت.

واللغة هي وسيلة الاتصال وأداته المثلى، وإن شاركتها وسائل أخرى، إلّا أنّ اللغة تبقى أهم وسائل الاتصال وأيسرها وأبقاها.

فالفوز الإنساني منذ بدء الخليقة كان للكلمة، وعندما تساءلت الملائكة عن سبب خلق آدم، والفائدة من ذلك، فإن كان للطاعة والعبادة؟ فهم المسبحون لله، المقدّسون له ﷻ، إذ قال الله تعالى لملائكته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة.

وهنا كان الفوز لآدم عليه السلام عندما أمره ربُّه جلَّ وعلا بأن يخبرهم: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ البقرة.

والله ﷻ يختبر إبراهيم عليه السلام بكلمات، فيتمّها عليه السلام، فيجعله الله ﷻ إمامًا: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة.

فسُدَّة النبوة والإمامة حصلّها أبو الأنبياء عليه السلام بعد اجتياز الكلمات أي الابتلاءات.

أمّا سيدنا يوسف عليه السلام، فإنَّ قدرته الكلامية تخرجه من السجن، وتُحوِّلُهُ من سجين الملك إلى وزيره ومستشاره، وكان ذلك بعد أن خضع لفحص، فقد حاوره الملك، وناقشه، فوجده متكلمًا فصيحًا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ سورة يوسف.

وموسى عليه السلام تعيقه الكلمة عن أداء رسالته، فقد كان يُعاني من حبسة في لسانه، فطلب من ربه ﷻ أن يُشرك أخاه هارون في أمره، وذلك لفصاحة لسان هارون، فترفع هذه الفصاحة والقدرة الكلامية هارون عليه السلام إلى سُدَّةِ النُّبوَّة، قال موسى عليه السلام: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ القصص.

ولقد شُغل الأقدمون من سلفنا على اختلاف درجاتهم، من: حكام، وولاة أمر، وعلماء، وأدباء، ومربين، ومعلمين، بقضية اللغة وحفظها، وتوصيلها لأولادهم وأبناء العربية أينما كانوا، بل وللأجيال القادمة.

وقد كان فهمهم للغة على أنها الوسيلة المثلى للتوصيل هو الذي جعلهم يُقبلون على دراستها وتدريسها، وكان لهم من وعيهم وفهمهم للدراسة والتدريس، بأن وضعوا المناهج والطرائق التي تيسر اللغة دراسةً وتدريسًا.

فانكبوا على دراسة اللغة بوسائل وأساليب وطرائق عديدة: تشرح، وتوضح وتوجز، وتنتخب.

أما التعليم والتدريس فقد كان لهم فيه منهجهم المبني على:

١- **التدرج**، ويعني الانتقال درجة درجة في التعليم، من الأسهل إلى الأصعب، مع شيءٍ من التؤدة، بحيث لا يخرج من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يتمَّه.

٢ - **الحصر**، ومعناه: تضييق عدد المواد التي يدرسها الطالب حتى يتقنها، فلا يخرج من علم إلى علم حتى يتمه أو يحسنه، لينتقل إلى العلم الثاني.

٣ - **الحاجة**، فالحاجة أم الاختراع، وهذا لا يعني حاجة المتعلم فقط، وإن كان لها مكانة، ولا يعني إهمالها وإغفالها، وإنَما حاجة المجتمع هي الدافع القوي الذي يقرر ما هو بحاجة إليه، وما ليس بحاجة.

٤ - **الطرائق والأساليب**، ولا شكَّ أنَّ الفرق كبير بين الفصيح المتكلم الذي يبين عن حاجاته، وبين الأبكم الذي لا يقدر على شيء من ذلك، ولذلك فقد ضرب الله ﷻ بهما المثل، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ النحل.

وأخيرًا فالكلمة الطيبة بتأثيرها وقدرتها على النماء الدائم العطاء مثل الشجرة الطيبة، يقول الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

﴿٢٥﴾ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ إبراهيم.

فالكلمة ترفع وتضع، وتُعلي وتُخفض، قد يُلْهَمُها صاحبها، في: طلب، أو خطاب، أو حوار، أو جواب لسؤال، فتضعه على القمة، وفي مصاف الكبار، وقد تنزل به إلى أسفل السافلين، وتضعه في الحضيض بعد أن كان في علّيين.

قد تعتق رقبته من حبل الموت، أو تفكُّ أسره، وتطلق سراحه، وقد تقيّده بالأغلال، وتلقي به في غياهب السجون، وهناك أمثلة كثيرة، ونماذج متعددة، فالغلام الذي وقف بين يدي الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك هو نموذج فريد يؤيد ما قلناه، وقصة فصاحة هذا الغلام جعلت الخليفة يأمر بقضاء حاجة قومه، وفي العرض لها تبيان لقيمة الكلمة، وإظهار لأثر البيان، ومجملها ما ورد في كتب الأدب[1]:

قحطت البادية في أيام هشام بن عبدالملك، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم، فدخلوا عليه، وفيهم درواس بن حبيب، وله أربع عشرة سنة، عليه شملتان وله ذؤابة، فأحجم القوم، وهابوا هشامًا.

ووقعت عين هشام على دِرْواسٍ فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاءُ أحدٌ أن يصل إليَّ إلاَّ وصل ! حتى الصبيانُ؟!

فَعَلِمَ دِرْوَاسُ أنه يُريدُه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ دُخولي لم يُخل بك شيئًا، ولقد شَرَّفني، وإنَّ هؤلاء القومَ قَدِموا لأَمْرٍ أحجموا دونه، وإنَّ الكلامَ نَشْرٌ والسُّكوتَ طَيٌّ، ولا يُعْرَفُ الكلامُ إلاَّ بنشره.

(١) الأطفال في التراث العربي: ص ١٥٦ - ١٥٧.

فقال له هشام: فانشر لا أبا لك!! وأعجبه كلامه.

فقال: أصابتنا سنونَ ثلاثٌ: فسنةٌ أذابتِ الشحمَ، وسنةٌ أكلتِ اللحمَ، وسنةٌ أنقتِ العظمَ، وفي أيديكم فضولُ أموال، إن كانت لله ففرّقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة للجسد إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا، وأمر أن يقسم في باديته مائة ألف درهم، وأمر لِدِرْواسٍ بمائةِ ألف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين، اردها إلى جائزة العرب، فإني أكره أن يعجَزَ ما أمرَ لهم به أميرُ المؤمنين عن كفايتهم.

قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟

قال: ما لي من حاجةٍ دون عامة المسلمين.

وورد في كتب الأدب أن الحجاج قال لأحد الأعراب، وهو القبعثرى[1]: (لأحملنّك على الأدهم) وأراد به القيد، أي أنه سيسجنه ويقيده. وهنا يدرك هذا السجين أنّ عليه أن يحسن الرد، وأن يحوّل نية الحجاج ومراده إلى أمر آخر يتفق لفظًا، ويختلف معنًى، وهو بهذه الوسيلة يستطيع أن يغيّر المفهوم الذي أراده الحجاج، وذلك أن لفظ الأدهم له معنيان، فهو يعني القيد، ويعني الفرس، فحمل كلام الأمير على محمل الخير، فقال: (مثل الأمير من يحمل على الأدهم

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة ٦٢٢.

والأشهب) فكان هذا التحويل والصرف من التهديد بالوعيد، إلى التفكير بالإحسان، وهـذا من حسـن التلطّف، الذي يبعث على فعل الخير، وهو مـا أدّى بالحجاج في ألا يخيّب ظن هذا الرجل، فمنّ عليه وأعطاه حصانًا أدهم، وأكرمه!

ومـن هذا قول الطبيب لمن غلبت عليـه الصفراء، إذا قال: أشتهي العسل. فيقـول له الطبيب: بالخل. فإنّه تلطف به غايـة التلطف في الإجابة إلى شهوته، مضافة إلى ما يدفع ضرره، حيث قيدها بالخل [1]).

وظائف الاتصال:

للاتصـال وظائف عديدة، تختلف باختـلاف الأركان والوسائل والغايات، وقـد حاول الفقهاء، وعلماء النفس والاجتماع، والمربون، والمختصون بالإعلام، تبيان هـذه الوظائف كلٌّ على حسب ميدانه وأغراضـه، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك، ما يلي:

١- **التلقي والتعليم:** الاتصال الأدبي واللغوي هدفه الأساس، وغرضه هو التعليم، فمنذ أن يبدأ الطفل بالاستماع، يبدأ استقباله التعليمي يستمر في تلقي الرسائـل التي تحمل إليه إضافة علمية جديدة في كل لحظة من لحظات حياته، فيمر في سني عمره عبر وسائل تلقٍّي من صفه الأول، وحتى يبلغ غايته.

٢- **الاتصال بالتراث:** الأدب وسيلة تصلنا بتراث الأمة، وتراث الأمة ليس أشياء مضت، وعبرت، وإنّما هو قواعد وأسُس نبني عليها، كما قال الشاعر[2]:

نبنِي كما كانَتْ أوائلُنا تبنِي ونصنعُ فوقَ ما صنعُوا

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة: ص ٦٢٣.

(٢) الأغاني ٢/ ٥٠ والبيت للمتوكل الليثي.

فـتراث أي أمة هـو جزء أساسي مـن كيانها وشخصيتهـا وتاريخها، فكل حضارتها وثقافتها عبر تدرجها العلمي، وما خلفته من مؤلفات، وما وصلت إليه من رقي علمي وحضاري، وما كانت عليه من عادات وتقاليد، كل ذلك يصب في تأكيـد معارفنا، وترسيخ مفاهيمنا، ويضيـف إلى خبراتنا ما يسهل علينا عملية العبور الحضاري، والتقدم العلمي.

٣- **الإخبـار والمعلومـات:** يتلقى المستقبل في كل حين أخبارًا ومعلومات من دقيقها إلى جليلها، ومن قليلها إلى كثيرها، والأخبار والمعلومات قد تتعلق بالفرد أو بالمجموع، وقد تكون خاصة أو عامة، كما تختلف في أشكالها وأنواعها، فالخبر السياسي غير الاقتصادي أو العلمي أو الاجتماعي.

٤- **تعميـق الثقافة وسـعة المدارك:** الاتصـال بالمعرفة من خلال المؤلفات والكتـب والمعلمين، ومـن خلال الوسائل الأخرى، والخـبرة بالحياة والناس، كل ذلك يؤدي إلى اتساع الثقافة وتأكيدها وتعميقها.

٥- **الإمتاع والترفيه:** الأعمال الأدبية - من: شعر ونثر بأشكالها المختلفة: كالمقالة والقصة، والمسرحية - تبعث فينا المتعة، وتجلو عنا صدأ الحياة، وإذا كان للقلـوب صدأ كصدأ الحديد، فإن السياحة في الفنون الأدبية تجلو هذا الصدأ، وتبعث فينا النشاط والحيوية، والإقبال على الحياة والعمل.

٦- **امتلاك القدرة على الاتصـال:** إن الخلق قد خلقوا ليتصلوا بخالقهم عن طريـق العبـادة، مصداقًا لقولـه تعـالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات.

وخلقهم الله ﷻ ليتعارفوا، والتعارف هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ الحجرات.

والتعارف والتواصل والتفاهم من أهداف هذا الخلق، ولا يمكن أن يتم ذلك دون تفاعل بيننا وبين الآخرين، ولحاجة الإنسان الشديدة إلى هذا الاجتماع والتفاهم، كان الحرص على امتلاك هذه القدرة ضروريًّا للنجاح في هذا الاجتماع الإنساني، فنحن حين نتعلم هذه المهارات، نتعلمها كأيِّ علم نريد استخدامه، فالذي يملك القدرة في الطب أو الهندسة إنما يمتلكهما لاستخدامهما، كذلك من يتعلم مهارات الاتصال فهو يريد الوصول إلى غاية هي النجاح في هذا الميدان.

أنماط الاتصال:

تتعدّد أنماط الاتصال عند الباحثين، ولعلّ الجاحظ من أوائل من نصبوا أنفسهم للتعريف بأنماط الاتصال، فذكر لنا خمسة أنواع في حديثه عن الكتابة والكتاب في كتابه الحيوان، يقول[1]:

(وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة..... وهذه الخصال هي: (اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والخصلة الخامسة ما أُوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة التي لا تنبس ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرّك إلاّ بداخل يدخل عليها) فهذه الأنماط التي أوردها الجاحظ في هذا النص لا

(١) ١/ ٢٧٥.

تبعد كثيرًا عمّا ذكره المحدثون من علماء الاتصال، ونستطيع أن نضع هذه الأنماط في النظام الآتي:

أولًا: الاتصال اللفظي: وهو الاتصال الذي يتم عن طريق الألفاظ، وقد يكون:

أ. **بين الشخص ونفسه**، أي اتصال ذاتي، وهو ما نسميه بالنجوى أو حديث النفس، سواء من خلال التفكير أو التعبير بالخيال أو بصوت مرتفع، وهذا الشكل يبدو حضوره في المسرح كثيرًا، وهو الحديث الجانبي الذي يقوم به شخص بافتراض عدم سماع هذا الحديث من قبل آخرين.

ب. **بين الشخص وآخرين**، وهو الاتصال الجمعي الذي يتم بين فردٍ وفرد، أو فردٍ ومجموعة، أو مجموعة مع فرد، أو مجموعة أخرى، وهذا هو الشكل أو النمط المألوف من الاتصال؛ لأننا نريد بلوغ حاجاتنا من الآخرين، كما يرى الجاحظ، إذ يقول: [1] (**لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخّر له، فأدناهم سُخّر لأقصاهم، وأصلهم ميسّر لأولهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقير، والعبد وسيده**) وهذا الكلام من الجاحظ يكاد يشرح الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الزخرف.

ولا شك: أن هذا الرأي الذي قدمه الجاحظ هو ما نجده عند ابن خلدون في قوله عن حاجة الإنسان للاجتماع والاتصال: (**الإنسان مدني بالطبع** [2]).

---

(١) الحيوان السفر الأول: ص ٣٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/٥.

ثانيًا: الخط، ويعني به الكتابة، فاللفظ هو الاتصال المباشر، والكتابة بأشكالها المتعددة لون من ألوان الاتصال غير المباشر، فالتأثير الشخصي للكاتب يختفي بغياب شخصه؛ لأن بعض المؤثرات التي تحدث نتيجة مباشرة الاتصال والمواجهة بين المرسل والمتلقي تكاد تختفي، فنحن حين نقرأ مقالة، أو نتصفح كتابًا أو صحيفة، فإنّ الأثر الشخصي لا نواجهه في أثناء القراءة، بينما يظهر هذا الأثر الشخصي في مواجهة من يخاطبنا، فالخطاب أصالة، والكتابة نيابة.

ثالثًا: الإشارة، ولعل حديثنا عن اللغة الإشارية فيما سيأتي يكاد يكون كافيًا.

رابعًا: العقد، وهو نوع من الحسبة على الأصابع، وهو قريب من الإشارة.

خامسًا: النُّصبة، أي الأشكال والنماذج التي نراها في الطبيعة والحياة، فقد تقدم لنا بعض المشاهد والمرائي إيحاءات أو دلالات عن شيء ما، فرؤية مئذنةٍ، أو قلعةٍ، أو سورٍ، أو مدرجٍ، يعطينا دلالات معينة.

عناصر الاتصال:

يكاد يجمع القدماء والمحدثون من المختصين في مهارات الاتصال على أن عناصر الاتصال تكمن في: (**المرسل، والمتلقي، والرسالة، وقناة الاتصال**) وفيما يلي توضيح لخصائص كل عنصر وسماته على حدة:

أولاً - المرسل/ المتصل:

ويطلق عليه البعض المتصل، وهو الذي يقع عليه عبء الاتصال أيًّا كان سواءٌ أكان: خطيبًا، أم شاعرًا، أم كاتبًا، أم معلمًا، أم مديرًا، أم رئيسًا، أم صاحب حاجة، ويشترط في المرسل إتقان أداء رسالته، ولينجح في أدائها لا بدّ من أن يتّسم بسمات، أهمها:

١- **إجادة اللغة**، فمن يحسن اللغة يحسن التعبير عن حاجاته من خلالها؛ لأن اللغة كما يقول ابن جني في تعريفها: (**أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم** [١]) وإجادة اللغة تحتاج إلى التعليم، وحفظ الجيد من: أشعارها، وأمثالها، وخطبها، وحكمها، ومعايشتها، وممارستها في كل وقت.

٢- **الثقافة الواسعة والفهم العميق:**

التمكن من اللغة وحدها ليس كافيًا للإتقان والإجادة التامّين، فلا بدّ من ثقافة واسعة عريضة تردف الإجادة اللغوية وتُنمّيها، فمعرفة علوم العربية من: نحو، وصرف، وبلاغة، وفقه لغة، وأدب، ونقد، هو القاعدة الأولى، فإن البناء لا يعلو ويظهر إلّا من خلال ثقافة تلمُّ بتراث الماضي والحاضر، وتعود إلى المصادر الجادة، والمراجع القيمة.

يقول الصفدي في ثقافة الكاتب [٢]:

(**أمّا الكاتب فيحتاج إلى حفظ كتاب الله العزيز، وإدمان تلاوته؛ ليكون دائرًا على لسانه، جاريًا على فكرته، ممثلاً بين عينيْ ذاكرته؛ لينفق من سعته، وإلى معرفة اللغة والنحو... والتصريف، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والقافية.... وعلى الجملة فالكاتب يحتاج إلى كل شيء**).

٣. **الخلو من العيوب النطقية للمتكلم**، فالاتصال الشفوي قد لا ينجح بوجود هذه العيوب: كاللثغة، والفأفأة، والتأتأة، والتمتمة، وغير ذلك مما يصيب اللسان من آفات ضعف النطق: كالحُبَسة، والثقل، والعُقلة، واللكنة. ولا شك في أن سلامة اللسان من هذه العيوب تكون عاملاً مهمًّا في وضوح الرسالة وفهمها.

---

(١) الخصائص ١ /٣٣ وانظر اللسان مادة (لغو).

(٢) نصرة الثائر على المثل السائر: ص ٦٣- ٦٥.

٤. المكانة الاجتماعية والعلمية: تساعد المكانة الاجتماعية والمركز العلمي في التأثير الإيجابي على استقبال الرسالة، فكلما كان المرسل ذا مكانة مرموقة، يطمئن إليها الناس ويثقون فيها، ويقدرونها، ويحترمونها، كلما كان استقبال رسالته، والترحيب بها أكثر، وهذا لا يعني أن قيمة الرسالة الأدبية تنبع من مكانة مرسلها فقط، ولكن المكانة تعطيها أهمية زائدة، و إلّا فما قيمة المكانة إذا كانت الرسالة ضعيفة، ومشوشة، وشائهة؟

٥- الصدق الحقيقي والفني: وهما صدقان قد يختلفان ظاهرًا، ويتفقان باطنًا، وقد يكون أحدهما مظهرًا للآخر، ويُقاس الصدق الحقيقي بالمقاييس الاختبارية للصدق، كموافقته للواقع والتجربة، وللظواهر الطبيعية، والقواعد العلمية المعروفة، أمّا الصدق الفني فيعرفه المتلقي، ويصدر حكمه عليه من خلال صدق تأثره به، فالمقولة بأن الشمس تشرق من المشرق، مقولة صادقة في الحقيقة يصدقها ما نراه، ولكن المقولة بأن الشمس تشرق من المغرب لا يصدقها الواقع، ولكن الشاعر قد يقول ذلك إحساسًا بوقع الصدمة، أو تمثيلاً لحال كما قال طرفة[١]:

إنْ تنوِّلْهُ فقدْ تمنعُه وتريهِ النَّجْمَ يجري بالظُّهُر

٦- شدة الجذب والتأثير للمرسل والرسالة أيضًا: فكلما كان للمرسل جاذبية قوية كان تأثيره أقوى في المتلقي، والجاذبية تتنوع وتتشكّل، فقد تكون شخصية أي ما يتوافر لها من سمات الرضا والقبول في رسمه وجسمه، وقد تعود للتشابه والتوافق في: الرأي، أو الاتجاه، أو العقيدة، أو المصلحة، فالتقدير والحب الذي يلقاه المرسل من المتلقي يكون أقوى وأشد جذبًا؛ لأن عين المحب دائمًا راضية، ومقبلة، وكما قال الشاعر[٢]:

(١) ديوان طرفة: ص ٢٦.

(٢) محاضرات الأدباء ١/٣٤٩.

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المساويا

وتحبيذ الرسالة، والقبول بها، والإقبال عليها، بغض النظر عن مرسلها، يقوى ويتأكَّد؛ لأنَّ مضمونها يحقق لنا رغبة، أو نزعة، وقد تُرفض الرسالة، أو تُقبل على مضض على الرغم من شدة جاذبية المرسل؛ لأن مضمونها جاء غير متفق ورغبات المتلقي، ففي قصة تأجيل العمرة بعد صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بذبح هديهم، وكأنَّ هذا الأمر قد خالف رغبتهم في أداء العمرة، فتلكؤوا في تنفيذه، حتى قام رسول الله ﷺ فذبح، فتدافع الصحابة يفعلون فعله.

ثانيًا: الرسالة: يتوقف فهم الرسالة، والإحاطة بمضمونها من قبل المتلقي على درجة وضوحها، فوصول الرسالة واضحة غير مشوشة، كاملة غير منقوصة، يكون أبين وأظهر، لذلك فإنّ هذا الفهم يتوقف على مدى تعدد وتنوع (**وتكامل الإشارات التي تحمل الرسالة، فالرسالة التي تنقل بوساطة الصوت والصورة تكون في أغلب الأحيان أوضح من الرسالة التي يتم نقلها بإحدى الوسيلتين فقط، كما أنّ الصورة المتحركة أفضل من الثابتة، والصورة الكاملة تكون أفضل من الصورة الناقصة** [1]).

وكذلك فالصورة اللفظية المشوشة وغير الواضحة لا يستطيع المتلقي فهمها الفهم الدقيق، ومثال ذلك بعض الكتب المخطوطة القديمة التي تتعرّض صفحاتها وحروفها للرطوبة أو للأَرَضَة، فلا تكاد بعض حروفها أو ألفاظها تظهر، ممّا يجعل المحققين يعجزون أحيانًا عن قراءة النص وفهمه، ويُقاس على ذلك كل رسالة غير واضحة المعالم.

---

(١) سيكولوجية الاتصال: ص ٩٣.

أسلوب الرسالة الناجحة:

١- **مخاطبة المتلقي بأمر مهم وجديد:** الجديد الطريف يبعث على الاهتمام، والمعاد المكرور يبعث على السأم والملل، فالحرص على الإتيان بالفكرة الجديدة أو الأسلوب المبتكر يجعل القلوب تُقبل عليه، وتصغي له، وتستشرفه الآذان والأفئدة.

٢- **الصياغة:** جودة المادة وحدها لا تكفي، فالذهب واحد، والصياغة مختلفة، منها ما يصعد بالثمن، ومنها ما يهبط به، والأزهار جميلة، ولكن فضل التنسيق عظيم، كذلك لا تكفي الألفاظ والجمل والعبارات مهما حاول الكاتب في تمثلها وتخيلها واختيارها، فصياغتها في أسلوب أمثل هي التي ترفع قدرها.

٣- **الجانب العاطفي:** للعاطفة جانبها التأثيري في نفوس المتلقين، وكلما استطاع المرسل بعث العواطف، وتحريكها أيًّا كانت هذه العواطف: دينية، أو وطنية، أو اجتماعية، أو ذاتية، فإن نجاحه يظهر من خلال هذه العواطف.

٤- **التشويق:** السعي للوصول إلى الخبر أو المعلومة يجعل المتلقي في انتظارها، وأسلوب التشويق فن يحتاج إلى فهم وممارسة.

٥- **ملاءمة السياق:** التآلف ما بين العبارات، وملاءمة الفكرة للموضوع المطروح، يؤديان إلى اتساق وتناغم، وانسجام وتلاؤم.

٦- **عدم الخلط بين موضوعين:** عدم التركيز على موضوع واحد في الرسالة الواحدة يؤدي إلى تشتيت المتلقي، ولذلك لا بد من عرض موضوع واحد؛ حتى يستقر في الذهن، وتكون الإجابة مرتبطة به.

٧- **مراعاة العنصر الزمني في الرسالة من حيث التتابع والتوقيت:** قد تصل الرسالة في غير وقتها، أو فواته مما يضيع أثرها، فتكون بلا فائدة، من هنا فإنَّ التوقيت له أهمية كبيرة.

وقد وضع لنا ضياء الدين بن الأثير ضوابط وأركانًا للرسالة الناجحة، لا بدّ للمرسل من أن يأتي بها، وهي خمسة كما يقول[1]:

(وأمّا الأركان التي لا بدّ من إبداعها في كل كتاب بلاغي -يقصد الرسالة- ذي شأن فخمسة:

الأول: أن يكون مطلع الكتاب عليه جِدّةٌ ورشاقة، فإنّ الكاتب من أجاد المطلع والمقطع.

الثاني: أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقًا من المعنى الذي بني عليه الكتاب.

الثالث: أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة.

الرابع: أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظًا غريبة، فإنّ ذلك عيبٌ فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكًا غريبًا، يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس، وهناك معترك الفصاحة الذي تظهر فيه الخواطر براعتها، والأقلام شجاعتها.

الخامس: ألا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية، فإنها معدن الفصاحة، والبلاغة.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١ / ١٢١ - ١٢٥.

فابن الأثير في هذه الأركان يجمل لنا ما أوردناه في أسلوب الرسالة، فيركز على البداية الموفقة الناجحة، مع ارتباط المقدمة بموضوع الرسالة، إلى جانب الوحدة الموضوعية، والبعد عن الخروج عن المقصود، واستخدام الألفاظ التي يرى المتلقي فيها الجدة على الرغم من كونها مستعملة، ولكنها ليست من تلك الألفاظ المبتذلة ولا الغريبة الحوشية في الوقت ذاته، وأخيرًا فإن على الكاتب أو المرسل أن يوشّح كتابه بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تزيد الرسالة جلاءً وبهاءً، ودلالة وإقناعًا، وقبولاً.

ثالثًا: قناة الاتصال:

تتعدّد قنوات الاتصال، وتتنوع سواء في الاتصال الشفوي أم الكتابي، ونعني هنا بقناة الاتصال: الوسيلة التي يتم عبرها نقل الرسالة، ففي الاتصال الشفوي يكون الخطاب هو الوسيلة الواضحة، فهو قناة الاتصال سواء أكان هذا الخطاب مواجهة ما بين شخصين، أم مسموعًا من إذاعة أو تلفاز، وفي الإشارة تكون حركات الوجه أو الجسد أو العين هي القناة، أمّا في الاتصال الكتابي فالأوعية التي تحمل الرسالة المكتوبة هي القناة، وهذه قد تكون: قرطاسًا، أو كتابًا، أو صحيفةً، أو مجلة، أو مطوية، أو أي شكل من هذه الأوعية التي تتم الكتابة بها.

ولقناة الاتصال - مهما تنوعت أشكالها - ضوابط لا بد منها، نجملها في ضابطين هما:

ضابط لغوي: بحيث تكون الرسالة محكمة من حيث الضبط اللغوي، في سلامة الأداء، وصحة البناء.

ضابط فني: ويعني ذلك عدم شكوى القناة من أي خلل فني، فالخلل الصوتي، كما في المشافهة، وسماع الأصوات الإذاعية والتلفازية يؤدي إلى خلل

في الاستقبال، والخلل المضموني في الاتصال الكتابي: كنقص في المعلومات، أو إتلاف جزء من الكتاب، مثل: المحو، والسقط، والطمس، والسهو، والإفساد، كل ذلك يؤدي إلى استقبال ناقص وغير واضح.

رابعًا: المستقبل/ المتلقي/ المخاطب/ المرسل إليه:

كل ذلك سواء، وهو الذي يستقبل الرسالة سماعًا أو قراءةً، وهو الطرف الثاني المعني بالرسالة: فهمًا، واستيعابًا، وأداءً، ولكي يكون أثر الرسالة واضحًا في المتلقي، فلا بدّ من توافق بين المرسل والمستقبل، والرسالة كذلك، كما لا بد من شروط تتوافر في المستقبل؛ حتى يستقبل الرسالة، وكلما كان المستقبل يتمتع بسمات وخصائص إيجابية فإن تلقي الرسالة يكون إيجابيًّا، والعكس بمثله، ولذلك فإن الباحثين والدارسين يفترضون عددًا من السمات التي يجب توافرها في المستقبل، وأستطيع أن أُوجزها في الآتي:

١- **الحصيلة العلمية والثقافية**، وتوافر هذه الحصيلة يُمكِّن المستقبل من فهم الرسالة، والنظر فيها وتحليلها ونقدها والحكم عليها.

٢- **الذكاء والبلادة**، وهاتان صفتان متناقضتان، وكلما اتسعت دائرة إحداهما ضاقت الأخرى، وبقدرها يكون تقبل الرسالة.

٣- **المرونة والانغلاق**، وكذلك هاتان من الصفات المتضادة، فقد يمتلك المستقبل الحصيلة العلمية، ويتميز بقدر من الذكاء، ولكن مرونته أو انغلاقه تتحكمان في نسبة الإقبال والقبول.

٤- **الاتفاق والاختلاف**، على الرغم من القاعدة الذهبية في أن الاختلاف لا يفسد للود قضية، إلّا أنّ تأثير الاتفاق والاختلاف قد يمكّن الود وقد يتلفه، والاتفاق والاختلاف لا يقفان عند جانب معين، فقد يكونان في:

الطبـاع، أو المنهـج، أو الاتجـاه، أو الرؤية، أو المصلحـة، أو الدين، أو المذهـب، أو غـير ذلك مما نتفق عليـه، أو نختلف فيـه، فما يتفق فيه المستقبـل مـع المرسل أو مع الرسالـة في الأهـداف والأغراض، يتلقى ذلك بالقبول، وما يرفضه يُعرض عنه، ولا يستجيب له.

الفصل الثاني

أساليب الاتصال

وفيه:

- اللغة الإشارية.
- واللغة المنطوقة.
- واللغة المكتوبة.

١- اللغة الإشارية:

الإشارة لون من ألوان التعبير الفاعل الذي نستخدمه في حاجاتنا وأغراضنا، ونستطيع من خلاله أن نعبّر بصمت عمّا نريد، وتتم الاستجابة من الطرف المستقبل بطريقة أكثر قبولاً، وتفهمًا وسرعة؛ كون هذه اللغة الصامتة تمثّل جوانب أداء مفعمة بالحيوية، وناضحة بالتأثير من خلال أمور عدة، وهي:

أولاً: الإيجاز:

حيث إنّ الطلب من: أمر، ونهي، أو قبول، ورفض، أو التعبير عن عاطفة ما، يتم من خلال: حركة، أو إشارة، أو لمسة، وهذه تكون كافية لأداء المطلوب منها أداءً معبِّرًا.

ثانيًا: التواصل العاطفي:

إن التعبير عن عاطفة معينة: كالحب، أو الشفقة، أو الإعجاب، أو الحزن، أو المواساة، أو حتى عاطفة الكره، تظهر من خلال نظرة بالعين أو حركة بالجسد، أو تعبير بعضلات الوجه، فالإشارة من اليد قد تحتمل عاطفة ترحيب كأن تفتح يديك، وبحركة مفارقة بظهر اليد تعبر عن رفض وازدراء ونفور، وكذلك التربيت على الكتف أو مسح الرأس، أو الابتسامة العريضة، أو الخطوط التي تظهر على الجبين، وعقد الحاجبين، وغير ذلك.

ثالثًا: سرية الأداء:

يستطيع المرسل في هذه اللغة، وفي غياب من الرقيب أن يرسل ما يشاء من: أوامر، ونواهٍ، وعواطف، دون خوف من: إعلان رأي، أو توجس من اعتراض أحد، أو نميمة نمّام، فالخشية من التصريح بعاطفة ما في حضور اجتماعي تغيب

في التعبير الإشاري، فنستطيع أن نوافق، أو نعارض، أو نغيّر، أو نبدّل، أو نوجّه ونعدّل من سلوك الآخرين وآرائهم، دون أي شعور بحرج أو خوف أو خشية.

٤- الجرأة:

ما لا نجرؤ على قوله يساعدنا التعبير الإشاري في الإفصاح عنه، فما لا نقدر على البوح به من خلال اللغة المنطوقة نتمكن من إظهاره بالإشارة، وإيصال مشاعرنا لغيرنا بنجاح، ودون أن يترتب على ذلك ما يترتب على الكلام من نتائج.

٥- الحزم:

في هذه اللغة من الحزم ما قد لا يوجد في اللغة المنطوقة، فهي لا تحتاج إلى مبررات وأدلة إقناعية، فقدرة حركة ما على التوجيه والسيطرة وتغيير السلوك، قدرة بينة واضحة.

أشكال اللغة الإشارية: لهذه اللغة أشكال منها:

١. **حركة الرأس:** في الرأس تكمن معظم اللغة الإشارية؛ لأن حركات الوجه والعينين يتضمنها، ولكن للتمييز بين هذه الحركات، سنفصل القول في كل واحدة على حدة:

- فحركة الرأس للأعلى حركة واحدة تعني الرفض.
- وفي المقابل حركته للأسفل تعني الموافقة.
- وحركته المتكررة يمينًا وشمالاً تدل على عدم المعرفة والتأكد.

وإذا أردنا أن نترجمها إلى حروف وكلمات، فنقول: الأولى (**لا**) والثانية (**نعم**) والثالثة (**لا أدري**) كما أن هذه الإشارات قد لا تتفق عليها الشعوب المختلفة، فالحركة الأولى مثلاً، هي عند بعض الشعوب عكس ما هي عندنا.

٢- تعبيرات الوجه: في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ سورة الفتح: آية ٢٩. إبانة واضحة عن أنّ حركة الوجه تعبر عن حال صاحبه ونفسيته، فالوجه هو المُعَبِّر عن المكنونات والمعبرُ إليها، فالوجه يقوم بوظيفة اتصالية، وينقل لنا وعنّا الأحاسيس والمشاعر، لدرجة أننا نستطيع قياس ومعرفة درجة مشاعر ومواقف الآخرين، من خلال ما يرتسم على وجوههم من علامات، فالله عزّ وجلّ قال في عتاب سيد الخلق عندما جاءه ابن أم مكتوم؛ ليتعلم منه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ عبس.

وفي تفسيرها: أي كلح بوجهه، وتولى أي أعرض بوجهه.

وقال تعالى عن الوليد بن المغيرة: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ المدثر.

والعبوس: التقطيب أي قطّب ما بين عينيه، وبسر: أي تغيّر وجهه واسود، وقد حصر أحد الدارسين التعبيرات الوجهية في الآتي: (**الألم، والغضب، وخيبة الأمل، والحزن، والاشمئزاز، والخوف** [١]) ورأى آخر أنها: (**السعادة، والمعاناة، والدهشة، والتصميم، والاشمئزاز، والامتناع**[٢]).

البِشْر وطلاقة الوجه:

لعلَّ علامات الوجه خير رسول، وأفضل ناطق معبِّر، فطلاقة الوجه تلقي في قلب المتلقي راحة وقبولاً، وتكسب صاحبها مودة، وبعكسها يكون العكس، يقول أحد الشعراء:

البشرُ يُكسبُ أهلَهُ صدق المحبة والمودةْ
والتّيهُ يستدعي لصا حبه المذمَّةَ والمسبَّةْ

(١) سيكولوجية الاتصال: ص ١١٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١١٨.

ويدخل هذا في باب الإحسان والإساءة؛ لأن الإحسان لا يكون فقط بالعطاء، وإنما يكون بالتوقير والاحترام، والبشر وطلاقة الوجه، فالكلمة الطيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك لك صدقة، و(**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها**[1]).

لغة الإشارة بالعيون:

لغة فصيحة مبينة، يُعبِّر بها صاحبها عن مكنونات صدره، ويفهم الرائي هذه اللغة الإشارية فهمًا واضحًا؛ لأن العيون هي النبع الفياض لإثارة المشاعر، وإذا كان قصدنا الحديث عن حاسة البصر الإنساني، فإنّ العودة إلى معاجم اللغة فيما يعطيه معنى العين من معانٍ يصبّ كله في تلك القدرة العجيبة لهذه المعاني المختلفة على الاتصال.

فالعين: نبع الماء الفياض الذي يصلنا بالمتعة والجمال، ويتصل بالأرض، فيثير فيها الخضرة والنماء.

والعين: الجاسوس الذي يستخدم عينه في استقراء المعلومات والاتصال بها، والحصول عليها.

والعين: الرجل الكبير في قومه، وكأنه عينهم التي ينظرون بها، فهو الجزء المعبّر عن الكل.

وللعين قوة عجيبة، لدرجة أنها قد تضر، كما جاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ القلم.

وقد قال الشاعر في نظر الأعداء بعضِهم إلى بعض[2]:

---

(١) الجامع الصغير ١ / ١٤٨.

(٢) البيان والتبيين ٣/١.

يتقارضون إذا التَقَوْا في موقفٍ... نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأقدامِ

وكما قال أحد الشعراء:

له عينٌ أصابتْ كلَّ عينٍ وعينٌ قد أصابَتْها العيونُ[1]

ويقول الصفدي:

يا لَهـا عَين حسـُود ردّتِ الأحْـورَ أعْـور[2]

وبدل أن توجّه الصفات لصاحب العين، اتجهت للعين ذاتها، فقالوا:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عينَ السخطِ تبدِي المساوِيا[3]

والعين شاهد الحب، كما يقول أبو منصور الديلمي:

يا ذا الذي ليس له شاهدٌ في الحبّ معروفٌ ولا شاهِدهْ[4]

شواهدي عيناىَ إنّي بها بكيتُ حتّى ذهبتْ واحِـدَهْ

والعـين تخون، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ غافر.

والعين نمّامة، كما جاء في المثل العربي: (**احترس من العين، فوالله، لهي أنمُّ عليك من اللسان**[5]).

---

(١) الشعور بالعور للصفدي: ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق: ١٠٧.

(٣) نهاية الأرب ١/١٥٦.

(٤) وفيات الأعيان ٣ /٢٤٧.

(٥) معجم الأمثال للميداني ١ / ٢٠٤.

والعين فصيحة اللغة على الرغم من صمتها، وفي ذلك يقول الشاعر الغزي[1]:

نطقُوا بأعينِهم وأفصحُ صامتٍ دمعٌ يفضُّ ختامَه الأشواقُ

وفي لغة الإشارة يقول [2]:

إشارةٌ منكِ تكفيني وأفصحُ ما رُدَّ السلامُ غداةَ البين بالعنم

وقول الشاعر[3]:

ومّما شجاني أنّها يوم ودّعت تولّتْ ودمع العين في الجفن حائرُ

فلمّا أشارتْ من بعيدٍ بنظرةٍ إليَّ التفاتًا أسلمتهُ المحاجرُ

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن إشارة العيون وحركتها، ومعظم الشعر الغزلي ينقل لنا لغة العيون، وكان امرؤ القيس من أوائل من قال[4]:

وما ذرفَتْ عيناكِ إلاّ لتقدحِي بسهمَيكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتّل

فالعيون عند امرئ القيس ترمي بالسهام.

وقد ورد في كتب الأمثال مكانة لغة الإشارة وأهميتها، فقالوا: (**الحر تكفيه الإشارة** [5]) و (**أسرع من الإشارة** [6]) وجاء كذلك أنَّ العين تخبر عن حال صاحبها، وتبين عن مجهوله:

---

(١) ديوان الغزي: ص ٤٠٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٧٧.

(٣) زهر الآداب ١/٢٩٩.

(٤) ديوان امرئ القيس: ص ٣٥.

(٥) معجم الأمثال ١ / ٢٣٠.

(٦) المصدر نفسه ١ / ٣٥٥.

مثل قولهم: (إنَّ الجوادَ عينُهُ فِرارُهُ [1]).

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء: اللحظ يعرب عن اللفظ.

وقال آخر: رب كناية تغني عن إيضاح، ورب لفظ يدل على ضمير.

ونظمه الشاعر، فقال:

جعلنا علاماتِ المودّةِ بيننا
دقائقَ لحظٍ هنّ أمضى من السّحرِ
فأعرفُ منها الوصلَ في لينِ لحظها
وأعرفُ منها الهجرَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ

وفي هذا قال بعض الحكماء: العين باب القلب، فما في القلب ظهر في العين.

وقال الشاعر[2]:

العينُ تُبْدي الذي في نفسِ صاحبِها
مِنَ المحبَّةِ أو بغضٍ إذا كانا
فالعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ
حتَّى ترى مِنْ ضميرِ القلبِ تِبْيانا

وقال المجنون [3]:

كلانا مظهرٌ للناسِ بُغضًا
وكُلٌّ عندَ صاحبِهِ مكينُ

(١) مجمع الأمثال ٢/١.
(٢) البيان والتبيين ٥٦/١.
(٣) الشعر والشعراء ١٢٢/١.

تُبلِّغُنا العيونُ بما أردْنا
وفي القلبينِ ثَمَّ هوىً دَفينُ

وإذا كانت العين مثار الإعجاب، ومركز الانتباه، فإنّ العين في مجال الاتصال وبؤرته ومركزه الذي يوحي بالآتي:

١- الهدوء والاطمئنان، أو الحذر والتوجس. ٢- الإقناع.

٣- التبرير. ٤- القوة والضعف.

اللغة المنطوقة:

للغة المنطوقة في صورها المتعددة - سواء أكانت: خطابًا، أم حديثًا، أم حوارًا، أم إلقاءً لنصٍ ما - قدرة توصيلية، وسلطة تأثيرية، وقد عرف العرب أثر اللغة المنطوقة الشفهية، وحسبوا لها حسابًا كبيرًا، ودليل ذلك أنّ كفار قريش كانوا يدعون أتباعهم لعدم سماع تلاوة القرآن الكريم، ينطق به رسول الله ﷺ أو بعض أصحابه رضوان الله عليهم، فكانوا يقولون لأتباعهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ فصلت.

وكان سماع الوليد بن المغيرة للرسول ﷺ وقد قرأ عليه بعض الآيات، أن عاد إلى قومه كالمذهول، فلما رأوه على هذه الحالة، قالوا: لقد صبأ الوليد، فأخذته العزة بالإثم، وقال: (**والله ما صبأت، ولكني سمعت من محمد كلامًا ما هو بقول الجن والإنس، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفلهُ لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه** [1]).

وقصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد سماعه أخته وزوجها يتلوان القرآن مشهورة ومعروفة.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ص ٧٤.

وتحدثنا كتب التاريخ والأدب أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية، قد طلب قبل بدء المعركة من القرّاء أن يقرؤوا القرآن أمام حشود الجيش المجاهد، والخطباء أن يخطبوا، والشعراء أن يُنشدوا، وبعد أن بلغ بهم الحماس مبلغه، بدأت المعركة، فتقدير أثر الكلمة المنطوقة في توصيل شحنة الحماسة من القائد يدل على معرفته بخطرها وأثرها وقوتها في النفوس، ولذلك قال العرب: (**رب قول أنفذ من صول**[1]) وقالوا: (**جرح اللسان أنكى من جرح السنان**[2]).

وتذكر كتب الأدب أن الشاعر عبد يغوث بن وقاص الحارثي عندما أُسر في إحدى المعارك، ربط أعداؤه لسانه؛ خشية أن يهجوهم، فقال في ذلك[3]:

أقولُ وقد شدّوا لساني بنسعَةٍ: أمعشرَ تيمٍ أطلقُوا عن لسانِيا

وتضحكُ منّي شيخةٌ عبشميّةٌ كأنْ لم ترَ قبلي أسيرًا يمانِيا

وهناك شواهد عديدة على أثر خطبة، أو قول، أو كلمة في تغيير الآراء والاتجاهات، فرب كلمة منطوقة أشعلت حربًا، ورب أخرى أخمدت حربًا. وسنفصل الحديث في المهارات التحصيلية المنطوقة.

اللغة المكتوبة:

تشمل كل ما هو مطبوع مقروء من: الكتب، والصحف، والمجلات، والمطويات، والإعلانات، وبهذه اللغة المكتوبة يحصل الاتصال العام، إذ إنها تعد وسيلة الاتصال الجماهيري، وإذا كان تأثير اللغة المنطوقة محدودًا بحدود

(١) مجمع الأمثال ١ / ٢٩٠.

(٢) المستقصى للزمخشري ٢ / ٥٠.

(٣) حماسة أبي تمام ٢/ ٥٢.

زمانية أو مكانية، ومحـدودًا في قوة تأثيره بقوة ناطق الحديث، وجودة الحديث ومضمونـه، وشـدة احتياج السامعين لـه، أو تعبيره عن: حاجاتهـم، وأمانيهم، وآمالهـم، وتطلعاتهـم، فإنّ للغة المكتوبة أثـرًا يتجاوز الآمـاد والأبعاد، ويستمر أثـره، وتشتد قوة توصيله، على مرّ الأيام والأزمان، فكم من كتاب وضع في زمن سابق كان له تأثيره الكبير في اللاحقين، وكتاب الله العزيز وهو أصدق الحديث، شاهـد على ما نقول، فكم من غير المسلمين مـن أسلم من خلال سماعه آية في كتـاب الله،وكم من عالم وقف مشدوهًا أمام إعجـازه العلمي، فلم يجد بدًّا من التسليم لـه. فالكلمة المكتوبة محفوظة وباقية، وأثرهـا مرتبط بهذه الديمومة، وفي قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبناء زهير بن أبي سلمى: (**ماذا أعطاكم هرم؟ قالـوا: أعطانـا مالاً وحللاً. قال: ذهب ما أعطاكم، وبقي ما أعطيتموه**[1]) ما يؤكـد هذا الأثر، فعطـاء اللغة المكتوبة عطاء دائم لا ينقطـع، وأثرها منطبع في القلـوب والعقول إذا اتصفت بصفات التأثير المقـررة في جوانبها: الموضوعية، والأسلوبية، والعاطفية، والعقلية.

واللغـة المكتوبة لا تكمن أهميتهـا في قوتها التوصيلية فقـط، بل هي وثائق غاية في الأهمية، وهي الحافظة لتراث الأمة، والمعينة على تمثله واستحضاره.

وللغة المكتوبة مزايا أخرى، منها:

١- **سـهولة العـودة إليها وقراءتها المرة تلو المـرة**، كما يسهل حملها ونقلها وحفظها، والتعامل معها في الوقت المختار.

٢- **حريـة الاختيـار**، فالقارئ للمـادة المكتوبة حر في اختيـار ما يشاء من موضوعات، أو جزئيات.

---

(١) العقد الفريد ٦/ ١٤٣والعمدة ١/ ٨١.

٣- **التفاعل مع المادة المطبوعة في تقديرها ونقدها، وفي التحليل** والاستنتاج، والإضافة والتعليق. وسيكون حديثنا مفصّلاً عندما نطرق الفصل الثالث المتعلق بوسائل الاتصال، وبالمادة المطبوعة.

نصوص تراثية في الاتصال اللغوي:

من الطرائف أنّ أعمى تزوج امرأة بصيرة، فقالت: لو رأيت حسني وبياضي لعجبت.

فقال: لو كنت كما تقولين، ما تركك لَيَ البصراء.

ودعا أحدهم على أعور، فقال له: أعمى الله عينيك.

فقال له: قد أُجيبت نصف دعوتك[١].

في فضل الأدب وأهله، وذم الجهل وحمله

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]:

(كفى بالعلم شرفًا أنه يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه).

فنظم بعض المحدثين ذلك، فقال:

كفَى شَرَفًا لِلْعِلْمِ دَعْوَاهُ جَاهِلٌ ... وَيَفْرَحُ أَنْ يُدْعَى إِلَيهِ وَيُنْسَبُ

وَيَكْفِي خُمُولاً بِالجهالَةِ أَنَّنِي ... أُرَاعُ مَتَى أُنْسَبْ إِلَيْهَا وَأَغْضَبُ

---

(١) محاضرات الأدباء ٣ / ٢٩٠.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٧٤ والمستطرف ١/٢١.

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: (قيمة كل إنسان ما يحسن).

فنظمه شاعر، وقال:

لَا يَكُونُ الْفَصِيحُ مِثْلَ الْعَيِيِّ ... لَا وَلَا ذُو الذَّكَاءِ مِثْلَ الْغَبِيِّ
قِيمَةُ الْمَرْءِ قَدْرُ مَا يُحْسِنُ الْمَرْ ... ءُ قَضَاءً مِنَ الإِمَامِ عَلِيِّ

وقال كرم الله وجهه[2]: (كل شيء يعز إذا نزر، ما خلا العلم، فإنه يعز إذا غزر).

ومر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قوم يسيئون الرمي، فقرعهم، فقالوا: إنا قوم «متعلمين»، فأعرض مغضبًا، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم، أشد علي من خطئكم في رميكم.

نموذج تحليلي من الحديث الشريف:

(سيد الاستغفار[3]).

من الاتصال الوجداني مع الله تبارك وتعالى:

روى شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قال: «اللهم، أنت ربي لا إله إلاَّ أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم».

---

(١) نهج البلاغة: ص ٦٧٤ والمستطرف ٢١/١.

(٢) العقد الفريد ١٥٧/١.

(٣) صحيح البخاري ج٨ كتاب الدعوات ومسند الإمام أحمد برقم ١٧١١١.

هذا الحديث الشريف والدعاء المتضرِّع من سيد الخلق لخالق الخلق، أطلق عليه العلماء اسم (سيد الاستغفار).

وهذه السيادة التي حازها هذا الحديث الشريف أتته من مناقب وخصال عدة، جُمعت لهذا الدعاء النبوي، وتحقَّقت فيه.

فالنبيُّ ﷺ في هذا الاتصال الوجداني المنبعث من شدة الوجد والحب والشوق، وعظمة الإكبار والإجلال، والإحساس بمسيس الحاجة، والاعتراف بالضعف، والإقرار بالربوبية، يلبي أشواق الروح إلى خالق الروح، ويلوذ بمن لا ملاذ سواه، ويعتصم بمن لا ملجأ منه إلاَّ إليه.

وقد تضمَّن هذا الدعاء رفيع الصفات، من عمق المعنى، ورائع اللفظ والمبنى، وتجلَّت فيه أسرار الجمال، ومناقب الكمال، ومن ذلك:

١- النداء القريب لله ﷻ، دون استخدام أدوات النداء، (اللهمَّ) وهو نداء المحب لحبيبه الذي لا يجانبه، والمولى لوليه الذي لا يفارقه، وهو استحضارٌ لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة.

٢- الاعتراف والإقرار بالربوبية، (أنت ربي) فالله ﷻ هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، رب الأرباب، ومسبب الأسباب، ومالك الأكوان، ومصرف الأزمان.

٣- إخلاص العبودية لله الواحد القهار، فالعلاقة بين عبد وبين معبود، بين مخلوق وخالق (خلقتني وأنا عبدك).

٤- الحفـاظ والثبات على العهد بكل ما يستطيع (**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**).

٥- الإقرار بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد (**أبوء بنعمتك عليَّ**) والرسول ﷺ بذلـك يستحضر قول الله عزوجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ إبراهيم.

٦- طلـب الغفران والرحمة من مالكها، ومانحها، والقادر عليها، من غافر الذنـب، وقابل التوب الغفور الرحيم (**وأبوء بذنبـي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم**).

٧- صدق العاطفة المنبعثة من قلب قد امتلأ إنابةً وحبًّا، ونفسٍ فاضت توقًا وشوقًا، ولسانٍ نطق صدقًا وحقًّا.

نصوص من التراث:

وسائل البيان: قال الجاحظ [1].

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخطّ، وعَقْد، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تمكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلَالة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر، وهو نصيب:

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ / ١٠-١٥.

فعاجُوا فأثنَوا بالذي أَنْتَ أَهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

وقال آخر:

مَتى تَكُ في عـدوٍّ أو صـديقٍ تُخَبِّرك العيـونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْليُّ في صِدق شمِّ الذّئب وفي شدّةِ حسِّه واسترواحه:

يَستخبِرُ الريحَ إذا لم يَسْمَعِ بمثل مقـراعِ الصَّفا الموقَّـع

وقال عنترة، وهو يصف نَعِيبَ غُراب:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لُحيِيْ رأسـه جَلَمانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَـع

وقـال الفضل بـن عيسى بن أبـان في قصصه: سَل الأَرْضَ، فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثمارَكِ؛ فإنْ لم تُجبكَ حِوارًا، أجابتْكَ اعتبارًا.

ثـمَّ اعلـمْ، رحِمَـك الله تعـالى، أَنّ حاجـةَ بعض الناس إلى بعضٍ، صـفةٌ لازمـةٌ في طبائعهم، وخِلقةٌ قائمةٌ في جواهِرهـم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهـم، ومشـتملةٌ علـى أدناهم وأقصـاهم، وحاجَتُهُمْ إلى مـا غاب عنهم - ممَّا يُعِيشُـهم ويُحْييهم، ويُمسِـك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيجْمَع شملَهم، وإلى التعـاوُنِ في دَرْكِ ذلـك، والتـوازُرِ عليـه - كَحَاجَتِهـم إلى التعـاون علـى معرفـة ما يضـرُّهم، والتوازرِ على مـا يحتاجون من الارتفـاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهـم، فحاجَـةُ الغائِـبِ مَوصُـولةٌ بحاجةِ الشـاهد، لاحتيـاج الأدنَى إلى معرِفـة الأقصـى، واحتياج الأقصـى إلى معرفَـةِ الأدنى، معانٍ متضـمّنةٌ، وأسـبابٌ متَّصـلة، وحبـالٌ منعقـدة، وجعل حاجتنَـا إلى معرفة أخبـارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البشـارات بالرُّسـل، ولم يسـخِّر لهم

جميعَ خلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه، وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد، وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة، ثم لم يقطع الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتًا من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه، ثُمَّ جَعلَ الله تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلَّلاً مُيَسَّرًا إمّا بالاحتيالِ له والتلطُّفِ في إراغَتِه واستمالته، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه، والفتكِ به، وإمّا أَنْ يأْتِيَهُ سهوًا ورهوًا، على أَنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاّ أَنّ الحاجةَ تفترِق في الجنس والجهةِ والجِبِلَّة، وفي الحظّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسان بالتفكُّرِ فيها، والنظرِ في أُمورِها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بمواقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع:

وهو البيانُ الذي جعلَه الله تعالى سببًا فيما بينَهم، ومعبِّرًا عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفًا لمواضع سدِّ الخُلَّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ

الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرامِ الساكنة، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلمِ، إلّا بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع، والتحفُّظِ من دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشّكلَ أفهَمُ عن شكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ الأنعام.

لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه.

ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وَضِعت له وصُرفتْ إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالة، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان، في الأجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلّا بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ ممسِكٍ خلّي عنها، بعد أنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسامَ ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد،

إلاّ بما فضّل الله به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس، وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسببًا موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنًا لما لا يأمَن نسيانَه، ممّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامّ والذائق نصيبًا.

فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر.

نصوص في أهمية العلم:

لإفادة من الوقت: أن يقسم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقية العمر لا قيمة لها، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات؛ لأنها تمنع من خلو القلب غالبًا.

ينبغي لطالب العلم ألا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه، فليتلطف في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء الدفع أسهل من الرفع، فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحًا، دينًا، تقيًا، ورعًا، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، فإن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبره، ومما يروى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لا تصحبْ أخا الجهل وإيَّـاك وإيَّـاه

فكم من جاهلٍ أردى حليمًا حينَ آخاه

يقاسُ المـرءُ بالمـرء إذا ما هُو ماشَاه

فراغ القلب من الشواغل:

وينبغـي أن يدخـل على الشيـخ أو يجلس عنـده وقلبه فارغ مـن الشواغل، وذهنـه صـافٍ لا في حال نعاس أو غضب أو جوع شديـد أو عطش أو نحو ذلك، لينشرح صدره لما يقال، ويعي ما يسمع.

القدوة:

وروى البيهقـي أَنَّ الشافعـي -رحمه الله- أقبل على مؤدب فقال له: «ليكن أول مـا تبدأ به مـن إصلاح من تؤدبهم إصلاحك نفسك، فـإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عِندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تتركه.

أولويات التعليم:

علمهـم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملـوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهـم من الشعـر أعفه، ومن الحديث أشرفـه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة».

التعلم قبل الانشغال والحذر من الغرور:

قال عمر: تفقهوا، قبل إن تسودوا.

وقـال الشافعي -رحمه الله-: تفقه قبـل أن ترأس، فإذا ترأست فلا سبيل إلى الفقه، وليحذر من مضرة نظره نفسه بعين الكمال، والاستغناء عن المشايخ، فإن ذلك عين الجهل وقلة المعرفة، وما يفوته أكثر مما حصله.

قـال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالمًا مـا تعلم، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى فهو أجهل ما يكون.

ثقافة الكاتب:

يقول ابن الأثير[1]:

أقول: أما الكاتب فيحتـاج إلى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته؛ ليكون دائـرًا على لسانه، جاريًا على فكرته، ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعته، وإلى معرفة اللغة والنحو وإدمان الإعراب ليلاً ونهارًا، حتى يصير له ذلك ملكة جيدة، والتصريف، والمعاني، والبيـان، والبديع، والعروض، والقافية، والأحكام السلطانيـة، وشـيء من التفسـير، وشيء مـن الأحاديث مثل كتـاب الشهاب أو كتـاب النجم للأقليشي، والآثار المنقولة عن الصحابة ﷺ، وما دار بين الخلفاء الراشديـن وعمالهـم، وما دار بـين علي ومعاويـة ﷺ من المحـاورات، وتواقيع الخلفاء، والوزراء والكتاب، وأمثال العرب، وحفظ جانب جيد من: شعر العرب، والمخضرمـين، والمحدثين، وفحـول المتأخرين، وحفظ جيـد الحماسة، ومختار المفضليات، وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون، وما أمكن من:

التاريـخ، وأسماء الرجال، والحساب، ومراجعات أمهات كتب الأدب: مثل الأغـاني، والعقد، والبيان والتبيـين، والذخيرة، وزهـر الآداب، وأمالي القالي، والكامل للمبرد، وتذكرة ابن حمدون.

وحفـظ جانب جيد من المقامات والخطب النباتيـة، وبعض شعر: المتنبي، وأبي تمام والبحتري، وسقط الزند، وغير ذلك.

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر ١/٧.

وقد اخترت أنا من شعر هؤلاء الشعراء الأربعة في مجلدة لطيفة، والوقوف على ترسل الكتاب، ومراعاة ما قصدوه في كل فن: من التهاني، والتعازي، والفتوحات، ووصايا تقاليدهم، وتواقيعهم، وأوامرهم، ونواهيهم فيها، وافتتاحات أدعيتهم في كل ما يتشعب من طرق الكتابة، وكيفية البداءات والمراجعات في: الهدايا، والشفاعات، والأوصاف، وكتب الإخوان، وما يجري هذا المجرى.

وهذا باب لا يغلق له مصراع، ولا ينعقد على حصره إجماع.

وعلى الجملة، فالكاتب يحتاج إلى كل شيء، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل فن، لقلت: إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه، وهيهات.

نعم، الناس متفاوتون في ذلك، وهم على طبقات: فمنهم من تسنم الدرجات، ومنهم من لا نهض من الدركات، وما بين ذلك. ولا بد من المشاركة مهما أمكن.

الفصل الثالث

وسائل الاتصال

وفيه:

١- المطبوع.

٢- الإذاعة المسموعة.

٣- الإذاعة المرئية.

٤- الشبكة الداخلية.

هذه الوسائل أو القنوات التي تمر عبرها الكلمة تعدّ النموذج الأكمل والأتم والأوفى، والأكثر تأثيرًا على جماهير المستقبلين لها؛ لذا فإن التسابق على جعلها الوسيلة الأفضل في الاتصال يظهره ما نراه من احتفال بإصدار الكتب المطبوعة، وإنشاء الإذاعات المسموعة والمرئية، وجاء التطور العلمي بالشبكة العنكبوتية التي كادت تسيطر على العقول والقلوب والأوقات؛ لقدرتها العجيبة في إيصال المعلومات، وسرعة الحصول عليها، ولا شك في أن لكل هذه الوسائل تأثيرها، وقدرتها، وإن اختلفت درجتها حسب الزمان والمكان والمستقبِل.

١- المطبوع:

كل كلمة، أو فكرة، أو موضوع، أو بحث يطبع في كتاب أو صحيفة، أو مجلة، أو ورقة لإعلان، أو مطوية، أو نشرة، أو حتى نقش على الجدران، أو بعض المعلقات كل هذه تدخل في المطبوع، وقد سبق لنا الحديث عن الكلمة المكتوبة في الفصل السابق، ولا نريد أن نكرر هنا ما قلناه هناك، ولكنني أريد أن أبين أثر الكلمة المطبوعة الدائم على قارئها في كل زمان ومكان، وهذا الأثر - إيجابيًّا كان أم سلبيًّا - يستطيع تغيير الاتجاهات، والآراء، والأفكار، وتعديلها، أو رفع درجتها أو خفضها، بحسب تأثر القارئ، واعتقاده صواب ما يقرؤه أو خطأه.

ومن هنا يتبين لنا وصف الله تبارك وتعالى، حيث ضرب المثل بالكلمة الطيبة، فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ إبراهيم.

فإتيانها أكلها كل حين يدل دلالة أكيدة وقاطعة على شدة أثرها وفاعليتها المستمرة، فعطاؤها في ديمومة متصلة في الزمان والمكان.

وقـد روي أن أحد رهبان جزيرة ميورقة الإسبانية حصل على كتاب الإمام محمد الغزالي (الرد الجليل على ألوهية عيسى بصريح الإنجيل) وهذا الكتاب يؤكد على أنه لم يجد نصًّا واحدًا يدل على ألوهية عيسى، فلما قرأ هذا الراهب الكتـاب - وهو الحافظ للأناجيل - عاد وتوثق، فوجـد ما ذكره الغزالي صحيحًا، فأعلن إسلامه.

وإذا كان للكلمة المطبوعة صفة الثبات والدوام مادامت موجودة لم تتلف فإن لها من الفاعلية ما يجعل الاهتمام بها، والاحتفال لها عند كل الأمم أمرًا ذا بالٍ.

ولقد ورد أن الخليفة العباسي المأمون كان يمنح صاحب الكتاب وزنه ذهبًا، ولقـد بادل أسرى الـروم بمكتبة القسطنطينية، وجعل لهـا مكتبة بيت الحكمة؛ عرفانًا لما للكتاب من أهمية في تطور الأمم.

ولهـذا تحرص الأمم في نقـل ثقافاتهـا - أو فرض رؤيتهـا على غيرها من الأمم، ومـن أجل اعتنـاق مبادئها وأفكارها - على تسويق مطبوعاتها من خلال: الترجمـة، وفتح المراكز الثقافية، والمكتبات، أو توزيع كتبها بلا مقابل، أو مقابل زهيد، كما كان يفعل المعسكر الاشتراكي.

الكتب تغيِّر الأفكار:

٥- قلنـا: إنَّ تأثـير الكلمة المطبوعـة حادٌّ وقـويٌّ إذا اجتمعت لها صفات التأثير في جوانبها: الفكرية، والموضوعية، والأسلوبية، كأنْ تضيف إلى معلوماتنا جديـدًا، أو توضِّـح لنا غامضًا، أو تقنعنا بفكرة، أو تثـير فينا عاطفة، أو تغرس فينا قيمةً، أو تصلح لنا حالاً، أو تبعث فينا متعةً.

٦- والكلمـة المطبوعة في أشكالها المتعدّدة: كالصحيفة، والمجلة، والكتاب، قد تُحدث ما ذكرناه آنفًا، فإذا أحدثته، فإنها تكون جديرة بالتقدير، وإذا كانت

الصحف والمجلات تمرُّ مرورًا مؤقتًا في حياتنا، فاليومي، والأسبوعي، والشهري، والفصلي منها له قدراته ومواصفاته، واختصاصاته: كنقل الأخبار، والإعلانات، أو التخصص في موضوعه: كالرياضة، والاقتصاد، والطب، والثقافة بعمومها.

٧- ويبقى الكتاب صاحب الأثر القوي في النفوس، ويبقى أثره ونفعه على الزمان، فكم من قارئ قرأ فتغيرت آراؤه، وتبدَّلت أفكاره، وذلك لديمومة الكتب، وانتشارها، وسهولة انتقالها، وترجمتها إلى لغات أخرى.

٨- وإنَّ أعظم الكتب تأثيرًا في النفوس، وفي الناس عامة، هي تلك الكتب التي نزلت بوحي من الله، وكان القرآن العظيم ولا يزال، وسيظلُّ أعظمَها أثرًا، وأشدَّها جذبًا، وأقواها على التغيير، وقد وصفه الله ﷻ بصفاتٍ تبين عن صفات كتابٍ: فريدٍ، متميزٍ، خالدٍ أبد الدهر، ولنتابع بعض صفاته، كما وردت في آياته الكريمة:

٩- كتابٌ لا شكَّ فيه، وفيه الهدى لمن اتبع رضوانه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة.

وهو كتاب محكم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران.

١٠- وهو نور مبين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ المائدة.

- وهو كتاب جامع.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الأنعام.

١١- وكتاب مبارك.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ الأنعام.

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأنعام.

- وهو المفصَّل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الأعراف.

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ فصلت.

- وحكيم.

قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ يونس.

- ودقيق الإحصاء.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف.

١٢- وهو كتاب مبين كل الإبانة.

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ ﴾ يوسف.

- وعزيز.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ ﴾ فصلت.

- وعربي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ ﴾ الزخرف.

وتجمع له الصفات المتعددة: كالإبانة، والهدى، والرحمة، والبشرى، والعلو، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ النحل.

والعلو والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ ﴾ الزخرف.

١٣- وكتاب كريم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ ﴾ الواقعة.

١٤- وهو أحسن الحديث.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾ الزمر.

١٥- وهو الحق كل الحق.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ محمد.

وجاء في المستطرف [1].

باب فضل القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر.

وسمى الله تعالى القرآن كريمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ الواقعة.

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ يس.

وسماه مجيدًا، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ ق.

أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء.

فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه، ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته، ولا ألذ من تلاوته.

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١/١٧.

وقال الشعبي: الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه ﷻ .

ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق.

فقال له: من أنت؟

قال: غالب بن صعصعة.

قال: ذو الإبل الكثيرة؟

قال: نعم.

قال: فما فعلت بإبلك؟

قال: أذهبتها النوائب، وزعزعتها الحقوق.

قال: ذلك خير سبلها.

ثم قال له: يا أبا الأخطل، من هذا الذي معك؟

قال: ابني، وهو شاعر.

قال: علمه القرآن، فهو خير له من الشعر.

فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيد نفسه، وآلى على نفسه ألا يحلّ قيده، حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة. وفي ذلك قال:

وما صبَّ رجلي في حديدٍ مُجاشعٍ
مَعَ القيدِ إلا حاجةً لِي أريدُها

فضل الكتاب:

قال الجاحظ[1]:

والكتـابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِـه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذممُّ منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا، وورُوده خِمْسًا، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

والقلـمُ مكتفٍ بنفْسـه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيرِه؛ ولا بـدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته، وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليـس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الـذي لا يملُّـكَ، والمستَمِيـح الـذي لا يستَرِيثُـك، والجـارُ الـذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحـبُ الـذي لا يريـد استخراجَ مـا عندَك بالملَـق، ولا يعامِلُـك بالمَكر، ولا يخدَعـك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب، والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَـك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجـوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَـك، وَعمَّر صدرك، ومنحـكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملـوك، وعَرفتَ به في شهـر، ما لا تعرفُه من أفـواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ مـن الغُرم، ومن كدِّ الطلـب، ومن الوقوفِ ببـاب المكتِسب بالتعليم، ومِن الجُلوسـ بين يَدَيْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقًا، وأكرمُ منه.

---

(١) الحيوان ١/١٦- ٢٨.

وينبغـي لمن كَتبَ كتابًـا ألا يكتُبَه إلاّ على أَنَّ النَّاس كلَّهـم له أعداء، وكلُّهم عـالٌم بالأمـور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثـم لا يرضى بذلك حتى يـدع كتابه غُفْلاً، ولا يرضـى بالرأي الفطـير، فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجُبًـا، فإذا سكنت الطبيعةُ وهـدأت الحركة، وتراجَعَـتِ الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافـرة، أعاد النَّظر فيه، فَيَتَوَقَّـفُ عنـد فصوله توقُّفَ من يكـونُ وزنُ طمَعه في السلامـة أنقَصَ من وزَنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر:

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه حتَّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقـفُ عند قولهم في المثل: كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ، فيخاف أن يعتريه ما اعـترى مَنْ أجرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقـدِ خصومه، وأهل المنـزلة من أهل صناعته.

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاجُ السامع لمـا فيه من الرويَّـة، ويحتاجُ مِنَ اللفـظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفـاظ السِّفْلَةِ والحَشْـو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشِـيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدًّا، وينقِّحَـه ويصفِّيـه ويروِّقه، حتى لا ينطِقَ إلاّ بِلُـبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَـه، وأسقطَ زوائِده، حتَّى عاد خالصًـا لا شَوْب فيه ؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهِمْ عنـه إلا بأن يجدِّد لهم إفهامًا مِرَارًا وتَكـرارًا؛ لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخـذ بها، ألا تَـرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهـذا الاسم، لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يـدور، وهـو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولـو سمِعه بعضُ الخطباء لمـا فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمـه من يريـد تعليمه؛ لأنَّه يحتـاج إلى أن يكون قد عرَف جهـةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

٢- الإذاعة المسموعة:

يُجمع الكثير من الدارسين على أنَّ ظهور الإذاعة قد أحدث تطورًا مذهلاً في وسائل الاتصال، فهي الوسيلة القادرة على عبور المسافات، والوصول إلى الناس على جميع فئاتهم، حتى الأميين منهم.

ومنذ أن بدأ البث الإذاعي في العالم الذي وصل إلى المستمعين في كل الأرجاء والأنحاء، وبخاصة أولئك الأميين، أو الذين لا تكاد تصل إليهم المطبوعات كالكتب والصحف والمجلات، كهؤلاء الذين يعيشون في الصحارى والقفار، أو في الأرياف البعيدة في شعف الجبال، صارت الإذاعة المسموعة لهم بمنزلة المُخْبِر، والمعلم، والمُثَقِّف، فالبرامج الإخبارية، والتعليمية، والتثقيفية، والترويحية، تمثلت بوضوح في هذه الوسيلة، إلى جانب ما لها من وسائل تأثيرية، وطرق فنية تعبيرية، وطرائق مشوقة وجذابة، ولمراعاتها للقدرات والفروق العمرية، ولذلك فهي تؤدي وظيفة في إحداث تغييرات: ثقافية، وعلمية، واجتماعية، وتزويدنا بمهارات الاتصال، وتكوينها، وتنميتها.

وبلا شك، فإنَّ تأثير هذه الوسيلة يكاد يفوق في تأثيره الوسائل المقروءة، وذلك لقدرتها على عبور حاجز القدرات القرائية عند السامع، فالأمي والمتعلم سواء في الاستماع، ونحن ننظر إلى ما تقدمه هذه الوسيلة من خلال ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: الإعداد اللغوي الجيد للمواد المقدمة، حيث تكون اللغة الصحيحة هي الأساس.

المستوى الثاني: ما يقدمه المتعلمون والمثقفون من مواد ارتجالية، وفي هذا المستوى نجد اللغة الوسطى التي تحرص على استخدام اللغة السليمة قدر الإمكان، مع ما يشوب الارتجال من ارتفاع وانخفاض في المستوى اللغوي.

المستوى الثالث: وهو ما يقدم في البرامج الترفيهية والاجتماعية من برامج ومواد تقدَّم بلهجات عامية متعددة.

ونحن نرى في المستويين الأول والثاني منهجًا مقبولاً في إيصال اللغة الصحيحة، مما يُوحِّدُ لغة السماع عند أبناء هذه اللغة، ويجعلها ميسَّرة، فتتركّز على ألسنتهم وأفئدتهم.

أما المستوى الثالث الذي يخلط بين اللهجات العامية من أقصى شرقنا العربي إلى غربه الأقصى، فيثير الحيرة والارتباك، إلى جانب تأثيره السلبي على لغة السامع.

٣- الإذاعة المرئية:

تُعدُّ هذه الوسيلة الأكثر فاعلية وخطورة، فهي تتفوَّق على جميع وسائل الاتصال الشفوية والمقروءة والمسموعة، في قوة التأثير، وشدَّة الجاذبية، والقدرة على استهواء جميع الفئات.

والتأثير الفاعل والشامل لهذه الوسيلة المرئية (التلفاز) يكاد يطغى على عديد من المشاهدين واهتماماتهم، بل يكاد يسرق أوقاتهم، فنسبة مشاهدة التلفاز تصل إلى نسب عالية كما تشير الإحصائيات، والدراسات الإعلامية، فالوقت الذي يقطعه المشاهدون أمام التفاز يمتد ويزيد مع ظهور الفضائيات، مما جعل التفاز يُعد من عوامل توحيد الأفكار؛ لأن الجميع (يشاهدون نفس المؤثرات، فهو يساعد على تحقيق وحدة الفكر والمعايير والثقافة والأذواق الجمالية[١]) ولهذا فإنَّ التلفاز يعدُّ (من أكبر مصادر الخبرة في حياة الطفل، فهو يشارك في شتى العمليات التربوية[٢]).

---

(١) الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي: ص ٢٥.

(٢) أثر مشاهدة التلفزيون على عادة القراءة عند الأطفال د. راشد الفضلي: ص٢٣.

فهـذا الأثر البالـغ لهذه الوسيلة يجعلها قادرة علـى أن تنهض بمسؤوليات جمـة من مثـل: التعليم، والتثقيف، والرقـي بالسلوك، والعـادات، والتهذيب في الألفاظ والعبارات، إذا ما أُحسن استخدامها وتوظيفها على الوجه الأمثل، كما أنها تستطيع جمع الأمة على لغة سليمة واضحة.

ومـع إيجابيات هذه الوسيلة، فإنَّ لها بعض الآثار السلبية على المشاهدين، فبعض الدراسات ترى (أنَّ مشاهـدة التلفاز تعطِّل ملكة القراءة عند الأطفال، ومن ثمَّ تُعطِّل ملكة التفكير أيضًا).

ومن هذه الآثار السلبية كذلك إهدار الوقت، وإضاعته فيما لا طائل وراءه، وبخاصة تلك المسلسـلات المخربة للعقل والدين، والمشاهد والبرامج التي تُدمِّر الأذواق والأخلاق.

ومـع كل مـا يُقال عـن الإيجابيـات والسلبيات، فـإنَّ الاستخـدام الناجح والفعّـال لهذه الوسيلة إنمَّا يعتمـد في الأساس على المسؤولين عن هذه الوسائل، فهـم المخططون الذين يضعـون الخطط، وهم المُعدّون الذيـن يعدّون البرامج، وهـم المقدِّمون الذيـن يقدمونها للجمهور، فالتخطيط الدقيـق، والموضوع المهم والجاد، والتقديم الصحيح والمشوِّق، إلى جانب التأثيرات الفنية والتعبيرية، كل ذلك يؤدي إلى وسيلة جيدة التوصيل، نافعة التحصيل.

٤- الشبكة الداخلية:

أو ما تسمى الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) هي من الوسائل التقنية الحديثة التـي فرضت نفسها علـى الإنسان والزمان والمكان، حتـى أصبحت عنوانًا للعلم والحضـارة والثقافـة، وغدت الوسيلـة الأسهل والأسرع والأغنـى، بل جمعت كل الوسائل السابقة، فهي: الكتاب، والمكتبة، والصحيفة، والمجلة، والإذاعة المسموعة

والمرئيـة، وخزانة المعلومات، والمركز الاستشـاري، كل هذه الصفات والخصائص والمزايا تتمتع بها الشبكة الداخلية، مما جعلها في مقدمة هذه الوسائل.

ومن أهم مزاياها:

١. سهولة الحصول على المعلومات ونسخها وتخزينها.

٢. القـدرة علـى البحـث والتنقيب عـن النصوص والقضايـا المطلوبة في البحث.

٣- إمكانيـة السـؤال عـن المعلومـات والنصوص، ومخاطبـة المختصين والعلماء والباحثين.

٤. التمكن من إرسال النصوص والأخبار والمعلومات بكل سهولة ويسر.

٥. التصحيح والتصويب اللغوي والإملائي.

٦- وأخيرًا الترجمة إلى اللغات المختلفة.

لكـن هـذه الشبكة، ومـع كل ما ذكرنـاه مـن إيجابياتها، يبقـى لها بعض السلبيات التي يجب أن نتنبه لها، من مثل عدم التأكد من صدق بعض المعلومات الـواردة، والتناقـض أحيانًا بـين الأخبار والمعلومـات، إلى جانـب بعض المواقع المهتمة بالتخريب والدس، والتأثير على الآراء والأفكار والعواطف.